الانثروبولوجيا في العالم العربي

- حالتا مصر والجزائر -

د.الصديق ثقاية- جامعة تيارت- الجزائر

الملخص :

لئن كان نشأة علم الأنثروبولوجيا في الغرب الأوربي المستعمِر وترعرع في بيئته الأولى، فأن ميدانه المفضل كان المُستَعمرالعالم الثالث ومنه العالم العربي الإسلامي، نتيجة للحركة الاستعمارية. وبذلك تعرف العرب على الأنثروبولوجيا مبكرا كغيرها من العلوم، ومنذ تلك اللحظة عرفت بعض الجامعات العربية تخصص الأنثروبولوجيا كعلم أكاديمي يدرَّس في الجامعات، وكانت مصر السباقة في التعرف بهذا العلم في العالم العربي، وذلك بفضل استقدام جامعاتها لأساتذة من الغرب وبالخصوص بريطانيا (إفانز بريتشارد، راد كليف براون)، وبعثاتها الطلابية أيضا ممن تكونوا في الجامعات الغربية (أحمد أبو زيد، الخشاب والجوهري)، وفي الجزائر بيير بورديو، فأسسوا معاهد وأقسام الانثروبولوجيا بالجامعات. وإن كانت هناك اختلافات بين البلدين إذ خضعت الجزائر للمدرسة الفرنسية وكانت هناك دراسات أنثروبولوجية ميدانية أبان الفترة الأستعمارية، فأن مصر أتبعت المدرسة البريطانية .

نحاول في هذه المداخلة عرض مسيرة للأنثروبولوجيا العربية البلاد العربية وخصوصا في جامعتي مصر والجزائر منذ فترة الاستعمار وحتى في فترات الاستقلال أي التأسيس الأكاديمي لها والتعثرات التي رافقتها خلال تلك المدة وحتى وقتنا الحالي.

Abstract :

Although the appearancce of anterpology science was in the western Europe (the colonizer) as its first environment , yet the third world (the colonized) was the best field to be applied in and through it to the islamic world as a result for clonization movement. The Arabs knew anterpology science early , as a result some Arabic universities assigned it as a module to be taught as an accadimic science. EGYPT was the first to adopt this science in its universities thanks to bringing of teachers from the west mainly from England (Effanz Brichard, Radcliff Brown), Egypt also sent students to the west to be formed (Ahmed Abouzid, Elkhchab and Eldjouhari). In Algeria it was pierre Bordio who established departments and institutions of anterpology in universities.The difference between the two countries is that there were some anteropological studies under the french colonization while in Egypt was affiliated to England Sschools.

Through this word, we are trying to show how the anterpology science was in the colonial period and even after indpendence in the Arabic world and also the differnent obstacles it met both in the past and present time .

مقدمة:

إن الحديث عن الأنثروبولوجيا في العالم العربي وتحديدا في مصر والجزائر لا يعني بتاتا الحديث عن أنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته واضح المعالم ومحدد الأهداف كما هو عليه الآن أو في حالة تأسيسه في مهده الأول الغرب وإن كانت ميادينه الخصبة الشرق الإسلامي أو البلاد المستعمرة ومنها العالم العربي، وحتى بعد نقله وزرعه زرعا في البلاد العربية هذا العلم (الأنثروبولوجيا) لا يسير جنبا إلى جنب وينظر إليه في البلاد العربي بنفس النظرة التي ينظر إليها لبقية العلوم الأخرى، خصوصا العلوم التقنية سواء من طرف الوصاية أو القائمين عليه بل حتى متلقي خطابه، وبالتالي الحديث عن انثروبولجيا في البلاد العربية (مصر والجزائر)، وبعد أزيد من خمسة عقود من الاستقلال، هو في جوهره حديث عن انثروبولوجيا ممكنة الوجود وليست موجودة بالفعل.

غير أن هذا القصور المعرفي في البلاد العربية لا يقتصر على الأنثروبولوجيا بل هو في كافة العلوم الاجتماعية، ولكن لا يعني من كلامنا هذا غياب كلي للأنثروبولوجيا في البلاد العربية- التي هي محل التركيز في هذه الدراسة-، أو هو يعيش حالته المرضية من السيء إلى الأسوء، بل شهد انطلاقة واستفاقة قصوى تضاهي انطلاقه في الغرب سيما وإن تأسيسه في الشرق كان في كثير من الأحيان من طرف آباءه الأوائل في الغرب (إفانز بريتشارد في مصر)، ونفس الشيء تقريبا في الجزائر التي كانت حقلا لاختبار فرضياتهم ونظرياتهم ومن ثمة تحققت لهم شهرتهم ونجاحاتهم العلمية، ومن هنا في هذه الورقة البحثية نجد أنفسنا نعرض حالة تأريخ للانثروبولجيا قبل عرض حالتها البحثية والأكاديمية في هذين البلدين.

ومنه لا يمكن معالجة هنا حال الأنثروبولجيا في البلاد العربية معالجة مستقيمة إذا عولجت بعيدة عن الظروف التاريخية التي تشكلت فيها كتلة المعارف الاجتماعية في المنطقة العربية، سيما وأن الأنثروبولوجيا كانت ولازالت ملحقة بفروع وأقسام العلوم الاجتماعية وعليه لا يمكن تجاهل المرجعيات والجهود التاريخية للعلوم الاجتماعية كافة في المنطقة العربية. كما لا يمكن أيضا معالجتها معالجة سليمة بعيدا عن الظروف التاريخية التي كان يعيشها المجتمعين المصري والجزائري، فكلا المجتمعين كانا خاضع لهيمنة القوى العالمية سواء في شكل

حماية أو استعمار، وحاجة تلك القوى المهيمنة كما للمجتمعات المُهيمَن عليها كانت للأنثروبولوجيا أكثر من حاجتها لعلم الاجتماع الذي هو كذلك بدوره تعرف عليه العرب مبكرا، "إذ حين تأسس علم الاجتماع في مصر كان المجتمع المصري على عتبة التحولات، ولكنه لم يزل مجتمعا تقليديا، فلم يختبر التحولات الكبرى التي أفضت ظهور علم الاجتماع في أوربا، فالإقطاع الزراعي هو النظام الاقتصادي السائد، ونظام الحكم ملكي وراثي وحركة التصنيع في مهدها ونظام التعليم محدود، ملائم لمحدودية فرص الحراك الاجتماعي"[(1)]، ونفس الشيء ينطبق تقريبا على المجتمع الجزائري مع فرق في البنى السياسية، ومن هنا تكمن أهمية هذا الموضوع وشرعية المقارنة.

أولاً- الانثروبولوجيا في مصر:

1- الوفود العلمية:

دخلت الأنثروبوولجيا إلى العالم العربي عن طريق اتصالها بالغرب وكانت مصر السباقة في التّعرف بهذا العلم في العالم العربي، وذلك بفضل استقدام جامعاتها لأساتذة من الغرب وبالخصوص بريطانيا (إفانز بريتشارد، راد كليف براون)، وبعثاتها الطلابية أيضا ممن تكونوا في الجامعات الغربية، فأسسوا معاهد وأقسام الانثروبولوجيا بالجامعات المصرية فيما بعد.

ولئن وصلت الأنثروبولوجيا متأخرة إلى الثقافة العربية، إلا أنها وصلت بقوة. فقد كثرت الدراسات التي عرّفت بها، وتناولت قصّة نشوئها في مهدها، الغرب الأوروبي والأمريكي، واشتغالاتها وتطوراتها وتحولاتها...، ومع هذا لم تكن تلك الدراسات، في أية مرة، فائضة عن الحاجة، أو ينطبق عليها مبدأ "لزوم ما لا يلزم"، فحيث إنها تهتم أولاً وأخيراً بالإنسان، فهذا حقل شديد الاتساع والثراء، لا يفضي إلى نهاية تكون بمثابة خاتمة المطاف، ويدعو الباحثين والمهتمين، كضرورة، إلى مزيد من الدراسات والأبحاث التي تتناول الوجوه المختلفة والمتجددة للإنسان.

يرى ريتشارد أنطون في عرضه للدراسات الأنثروبولوجية في منطقة الشرق الأوسط حقيقية هامة عن البدايات الأولى للدراسات الأنثروبولوجية في مصر، ترجع لثلاثينات القرن الماضي. عندما استضافت الجامعة المصرية في الثلاثينيات بعض أساتذة الأنثروبولوجيا البريطانيين البارزين، وكانوا يلقون محاضراتهم على الطلاب بانتظام في تلك الجامعة(جامعة القاهرة الآن). ومن هؤلاء الأعلام: هوكارتHocart وإيفانز بريتشارد Evans pritchard، وبريستيانيPeristiany. ولكن المفارقة أن أولئك الأساتذة كانوا يعدون أساتذة لعلم الاجتماع، ودرّسوا علم الاجتماع بالفعل لطلاب أقسام الجغرافيا، والفلسفة والاجتماع.

ويربط أنطون بين تلك النظرة وبين سيطرة المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع على القائمين على أمر تدريس العلوم الاجتماعية في مصر، وكان من شأن هذا الأسلوب من التفكير أن يركز الاهتمام على الفلسفة وعلى المشكلات الاجتماعية. وكان من الطبيعي ألا يشارك أتباع مدرسة دوركايم في مصر النظرة التقليدية البريطانية إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية كبؤرة الاهتمام الأول، وما من شك أن هذا الوضع قد أعاق انطلاق الدراسات الأنثروبولوجية المصرية من نواح متعددة. أي وجود أساتذة وتقاليد أنثروبولجيا بريطانيا وهيمنة فرنسية دوركايمية لغالبية هيئة التدريس، وربما يرجع إلى تمسك القائمين على تدريس علم الأجتماع بالمدرسة الفرنسية الدوركايمية -مع وجود الانجليز- "يرجع إلى كون السوسيولوجيا الدوركايمية التي تشدد على التماسك الاجتماعي تتناسب أكثر والوضعية الأجتماعية لمصر العشرينيات التي كانت تعيش والغليان واللاستقرار أدت إلى التخلص من الهيمنة العثمانية سنة1922، هذا نظريا، أما تطبيقيا، وبالفعل فقد أنجزت سنة1938 شرعت جمعية تدعى:" الجمعية العربية للدراسات الاجتماعية"، في تحقيقات ميدانية لظاهرة الفقر في مصر وقد جندّت تلك الجمعية لإنجاز هذا العمل الضخم عدد كبير من المحققين الاجتماعيين لاستجواب أكثر من ثلاثة آلف عائلة"[2].

ويسجل أنطون في دراسته المشار إليها أن رادكليف براون كان أول أستاذ بريطاني يفد إلى مصر أستاذاً للأنثروبولوجيا، وكان ذلك في عام 1947 عندما استقدمته جامعة

الإسكندرية لينشئ معهد العلوم الاجتماعية التابع لكلية الآداب بها، وكان يشغل في ذلك الوقت، وانسجاماً مع التقاليد الأكاديمية المصرية، كرسى علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية[3].

ولكن الدراسات الأنثروبولوجية حققت في الإسكندرية، وبفضل براون دفعة قوية لها، من خلال دخولها كتخصص دراسي من ناحية، وكفرع من فروع معهد العلوم الاجتماعية المذكور. وكان من أنجب تلاميذ مدرسة الإسكندرية في الأنثروبولوجيا الدكتور أحمد أبوزيد، وهو نفسه الذي شغل أول كرسي للأنثروبولوجيا أنشئ في مصر عام 1970.

2- التأسيس الأكاديمي:

بدأت الدراسات الأنثروبولوجية في مصر على المستوى الأكاديمي في عقد السبعينات، حيث تعددت كراسي الأنثروبولوجيا وتخصصات الرسائل والبحوث الأنثروبولوجية، وكثر عدد الحاصلين على درجات الماجستير والدكتوراه في الأنثروبولوجيا، وأنشئ كرسى للأنثروبولوجيا بجامعة القاهرة، الذي شغله المرحوم الدكتور أحمد الخشاب، وأنشئ قسم للأنثروبولوجيا بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، وبكلية الآداب جامعة الإسكندرية. ولن يتسع هذا المجال المحدود لتسجيل كافة الانتصارات الأنثروبولوجية على الصعيد الأكاديمي، وحسبنا أن نسجل الاتجاه العام لحركة هذا العلم.

وانطلقت الدراسات الأنثروبولوجية بجامعة القاهرة من خلال عودة الدكتور أحمد الخشاب من جامعة لندن بعد حصوله على درجة الدكتوراه(1953)، وبذلك دخلت معه التقاليد البريطانية في الأنثروبولوجيا، وفي منتصف الستينيات عاد الدكتورعاطف وصفى بعد أن درَس الأنثروبولوجيا في أمريكا، فدخلت تقاليد الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية إلى قسم علم الاجتماع العتيد بجامعة القاهرة، وتنوعت وتعددت أكثر من قبل، ومن جهود وإسهامات وزملاء وتلاميذ هذين الأستاذين لكي يتسع وبتنوع التراث الأنثروبولوجي بجامعة القاهرة، ومنه ينتقل الإشعاع إلى سائر الجامعات ومراكز البحث المصرية.

وفي هذا الوقت نفسه كان الأستاذ الدكتور علي أحمد عيسى أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية يساهم بجهده في الإشراف على رسائل طلاب هناك مثل: الدكتور أحمد أبوزيد(ماجستير)، والمرحومين الدكتور محمد عاطف غيث (الدكتوراه)، الدكتور علي

إسلام الفار(الدكتوراه)، والدكتور عبد الحميد لطفي (الدكتوراه). ولكي نفهم عمق هذا التأثير نذكر أن كلا من أصحاب تلك الأسماء أشرف لسنوات طويلة على قسم من أقسام الاجتماع بالجامعات المصرية، فتشعب التأثير، وإن كان قد تباين إسهام كل منهم عن الآخرين، فمنهم من مزج في جهوده بين الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية، ومنهم من غلب الطابع الأنثروبولوجي على عمله، ومنهم من كان مقلدا أو غير محدد الاتجاه بشكل مؤثر. ولا شك أن هذا العرض المجمل يتطلب تقييماً محدداً لإسهام كل من ورد اسمه، لكي لا تختلط الجهود أو تتداخل الإنجازات، ومع تسليمي بذلك فإني أعتقد أن بعض الأسماء التي ذكرت أكبر وأشهر من أن تتداخل مع أحد أو تختلط على أحد.

ويسجل ريتشارد أنطون أيضاً ملاحظة جديرة بالاهتمام والتأمل، حيث يلاحظ تميز الدراسات الأنثروبولوجية المصرية منذ بداياتها الأولى بإجراء الدراسات الميدانية على نطاق واسع وبشكل مركز. ونسجل في هذا الصدد دراسات على عيسى وأحمد أبوزيد، وعاطف غيث، وغيرهم, غير أنه يلاحظ أن الفروض التي انطلقت تلك الدراسات للتحقق منها كانت مشتقة من كتابات علماء الاجتماع الفرنسيين، مما حقق نوعاً من الاتصال بين التراث السوسيولوجي الذي كان قائماً في مصر، وتراث العمل الميداني المستحدث الوافد مع الاهتمام الأنثروبولوجي ذو التقاليد الأنجلوساكسونية[4].

ووجه الأهمية في هذه الحقيقة أن الدراسات الأنثروبولوجية لم تكن أبداً أعمالاً إثنوجرافية وصفية بسيطة لبعض النظم الاجتماعية هنا أو هناك، أو لبعض المجتمعات المحلية، ولكنها كانت أعمالاً علمية تحليلية، مستندة إلى مادة ميدانية.

ومثال ذلك دراسة أحمد أبوزيد للماجستير عن "طقوس الجنائز عند المسلمين المصريين"، وقد استمدت إطارها النظري من كتابات هيرتز، وفان جينب، ورادكليف براون، واستمر نفس التراث التحليلي في الأنثروبولوجيا المصرية حيث قدمت علياء شكري دراستها عن " الثبات والتغير في عادات الموت في مصر من العصر المملوكي حتى العصر الحاضر"، مستندة إلى مادة من المدونات ومن الدراسة الميدانية، ليس بهدف التجميع، ولكن بغرض الكشف عن ظواهر التغير في تلك العمليات وديناميات هذا التغير وعملياته.

وتعددت الرسائل التي أشرف عليها فيما بعد أحمد أبوزيد عن تحقيق فروض وقياس مشكلات وتشخيص عمليات اجتماعية، مضرباً لها مثلاً برسائل الدكتور السيد حامد عن البوابة الجديدة، والدكتورة عليه حسين عن الوادي الجديد، والدكتور محمد عبده محجوب عن الكويت...إلخ.

كذلك تنوعت وتعددت الرسائل التي أشرفت عليها علياء شكري بقصد تحقيق فروض ورصد ظواهر وتشخيص مشكلات، أذكر منها على سبيل المثال: رسالة سعاد عثمان عن الأولياء (الماجستير) ومجتمع الجيرة (أطروحة الدكتوراه)، وأطروحة نجوى عبد الحميد عن الجماعات العرقية في منطقة أسوان (العبابدية والنوبيين والصعايدة) للماجستير، وعن التنشئة الاجتماعية في إقليم الفيوم (الدكتوراه)، ومنى الفرنواني عن تغير المعتقدات السحرية في مجتمع حضري(الماجستير)، وعادات دورة الحياة (الدكتوراه)..إلخ

هذان مجرد نموذجين يمثلان مركزين من مراكز قوة الدراسات الأنثروبولوجية في مصر: قسم الأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية، وقسم علم الاجتماع بكلية البنات بجامعة عين شمس، وقسم علم الاجتماع بجامعة القاهرة، وغيرها من الإسهامات الأنثروبولوجية في أقسام علم الاجتماع الأخرى في الجامعات المصرية.

ويرى أنطوان أيضاً أن الدراسات الأنثروبولوجية في السبعينيات مازالت تركز اهتمامها الأول على دراسة مشكلات مصر الاجتماعية والاقتصادية، وخاصة مشكلة النمو السكاني السريع، والأسرة وتنظيمها، والتحضر، والتصنيع، وتوطين الفلاحين في الأراضي المستصلحة وغير ذلك. ويستشهد على ذلك بموضوعات الرسائل التي أجيزت في قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية (قبل استقلال قسم الأنثروبولوجيا)، والبحوث التي يجريها مركز البحوث الاجتماعية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة, واستمر هذا الاتجاه في سائر أقسام علم الاجتماع بالجامعات المصرية، وإن كان حدث أن أضيفت إلى القائمة بعض المشكلات التي استجدت على الساحة الاجتماعية، وأهمها مشكلة العمالة المصرية المهاجرة بمستوياتها المختلفة، وغير ذلك من المشكلات(5).

ولكن الاتجاه الثقافي في الدراسات الأنثروبولوجية قد استطاع طوال السبعينيات وحتى عام 1988 أن يحقق دفعات قوية، تمثلت في كم الرسائل التي أجيزت للماجستير والدكتوراه، ومشروعات البحوث التي أجريت في بعض تلك الأقسام وفي المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية وفي الببليوجرافيات والدوريات وغيرها.

نلاحظ من خلال هذا العرض إلى سمة خاصة للدراسات الأنثروبولوجية الجامعية في مصر، حيث تعيش الأنثروبولوجيا في الغالبية العظمى من الحالات مع علم الاجتماع في قسم واحد، وهو وضع قد يعتبره البعض في الظاهر وللوهلة الأولى وضعاً معوقاً لانطلاق العلم الأنثروبولوجي، ولكنه يمثل في نظري علامة صحية ووسيلة من وسائل القوة، وهذه الميزة ليست مقصورة على الجامعات المصرية بل كل الجامعات العربية ومنها حالة الجامعة الجزائرية، إذ وبعد نصف قرن من الاستقلال، وبعد الرجوع المحتشم للدراسات الأنثروبولوجيا لازالت مادة أو تخصص من علم الاجتماع وضمنه(قسم علم الاجتماع).

وإن كان الأنثروبولوجي بوتومور- الذي قدم إلى مصر-، يرى في هذا الأمر ظاهرة صحية وسليمة، إذ أقر بهذه الحقيقة وأكدها وأقام الدليل عليها من واقع خبرته العلمية العريضة، حيث يؤكد على اتجاه كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى الالتقاء سواء من حيث الموضوع أو من حيث المنهج.

ولم تقتصر الانثروبولوجيا العربية على الجامعات المصرية بل تبعتها جامعات عربية في الشرق الأوسط كالجامعات العراقية و السورية والأردنية، وظهرت بها كوادر ذات سمعة عربية، مثل علي الوردي في العراق، والربايعة أحمد في الأردن، والدكتور جلال كاظم العظم في سوريا، وعلى نهج الجامعات المصرية ابتدأت الأنثروبولوجيا في أقسام علم الاجتماع ثم أصبحت لها قسم خص بها، أو مع علم الآثار مثلما هو الحال في المملكة الأردنية بجامعة اليرموك.

إلا أن ما يميز الجامعات المصرية (القاهرة، الإسكندرية)، أنها تعرفت على الانثروبولوجيا مبكرة، بل أن المؤسسين الأوائل لهذا العلم، هم من أسسوا التقاليد الأنثروبولجيا بجامعاتها(راد كليف براون، أفانز برتشارد)، وفي الوقت الذي كان الطلاب

المصريين فيه يعدون أطروحاتهم الجامعية العلياء كان الآباء الأوائل للانثروبولوجيا في أوج عطائهم العلمي، بل وتتلمذوا على أيديهم في أمريكا وبريطانيا(أحمد أبو زيد، والخشاب)، وهذا الأمر لم يتح للبلدان العربية الأخرى، إذا ما اسثنينا العراق(علي الوردي الذي درس في أمريكا)، لكن لم نسمع بعالم أنثروبولوجي غربي أسس قسم للانثروبولوجيا، أو في الأقل درّس الانثروبولوجيا في جامعة عربية مثلما هو الحال في مصر.

نستنتج مما سبق، أن لهذا الحدث دلالتين أثنتين: الدلالة الأولى، وهي أن العرب وخصوصاً المصريين منهم على الأنثروبولوجيا مبكراً، والدلالة الثانية هو أنهم تعرفوا عليها من منبعها(مصدرها) الأول. لكن ما يعاب على الدراسات الأنثروبولوجيا العربية على تجزرها لازالت أسيرة البحوث الأكاديمية فلم تخرج بعد من أسوار الجامعات ولم توظف لخدمة التنمية أو هدف آخر يحفز من تطورها، فحالتها كحالة السوسيولوجيا في العالم العربي لهي محل تأزم وأشكال، فلا زال ينظر إليها على أنها علم المستعمر وتخدم توجهاته(فرق تسد)، وان الدراسات والمواضيع المحلية التي تشتغل عليها كالقبيلة والأثنية والتطرف والأقليات، تشكل بها إزعاجا للدولة ووحدتها الوطنية، فهي تتعارض مع تواجهاتها الكبرى، وهذا بالرغم من وجود بعض المراكز العربية في الأنثروبولوجيا(علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الأجتماعية والثقافية وهران/الجزائر، مركز البحث في الأنثروبولوجيا وعصور ماقبل التاريخ)، قسم الثقافة الشعبية بتلمسان، مركز أبن خلدون للدراسات الاجتماعية(مصر).

ثانيا: الانثروبولوجيا في الجزائر من الوثبة إلى النكبة:

بالنسبة للحديث عن الأنثروبولجيا في الجزائر بالنسبة للباحث يجد نفسه ملزما على تقسيمها إلى فترات ثلاث، ذلك لأن كل تختلف عن الفترات الأخرى من حيث القوة والضعف لكل منها وطبيعة الدراسة والمرامي والأهداف التي كانت من ورائها ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحلوهي مرحلة ما قبل الاستعماروهي الدراسات الأستكشافية، ومرحلة والمرحلة الأستعمارية، ومرحلة الاستقلال.

1- المرحلة الاستعمارية- مرحلة الوثبة:

1-1 مرحلة ماقبل الاستعمار(الدراسات الاستكشافية).

قبل بداية الحملة الاستعمارية الفرنسية، وتحديدا قبل تاريخ الهجوم الفرنسي في 14جويلية1830، فإن الإدارة الاستعمارية قد وفرت كل الشروط الضرورية لإنجاح العملية الكبرى المتمثلة في مشروع استعمار الجزائر. فالاهتمام بالجزائر مجتمعا وتنظيما كان من بين التساؤلات المطروحة ضمن المواضيع الموجودة حول تاريخ منطقة شمال إفريقيا. نفهم من هنا أن الحملة الاستعمارية الحقيقة لم تبدأ إلا في سنة 1830، وإنما بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات عديدة، بحيث أن الحملة الاستكشافية قد بدأت منذ السنوات الأولى للقرن السابع عشر، وإستمرت حتى نهاية القرن 18 عشر. والدليل على ذلك هو وجود الكثير من الوثائق والمخطوطات التي تصنف منطقة "البربر" ومنطقة "إفريقيا الشمالية" والتي تتحدث عن المماليك البربرية ومماليك فاس والجزائر وغيرها. وكل هذه الوثائق والمعلومات وكذا المعطيات التاريخية كانت من اجتهاد الكثير من المعاصرين والمسافرين والقنصليين المتوجهين إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وتحديدا إلى شمال إفريقيا[6].

هذه الوثائق والنصوص المكتوبة حول منطقة شمال إفريقيا قبل سنة 1830 كانت تهتم كثيرا بوصف العادات وأخلاقيات وقيم الجماعات والمماليك البربرية، كما أنها تركز اهتماما على التاريخ الاجتماعي و الأبعاد الجغرافية المميزة للوسط الطبيعي للمنطقة. وهذا ما يجعل بعض الباحثين والنقاد حول المنتوج المعرفي والانثربولوجي للدراسات الكولونيالية الأولى حول شمال إفريقيا، يحددون هذه المرحلة الأولى من الكتابات بالمرحلة الاستكشافية. بحيث يقولون إن المرحلة الأولى لظهور الأدبيات الأنثربولوجية والأتنوغرافية الكولونيالية كانت تجهل الكثير من المعطيات التاريخية والإجتماعية حول الجزائر. لكن كلها تبين الأهمية الكبرى لعملية استعمار خضوع المنطقة.

ونجد في هذا الصدد كتابا هاما "لفرانسا بنانتي"(F.Pananti) الذي نشر في 1820، والذي يركز على أهمية احتلال الشمال الإفريقي بالنسبة لأوروبا، بحيث يعود حتى إلى الماضي الاستعماري لهذه المنطقة المتعلق خاصة بالوجود الروماني[7].كل هذه المؤشرات

والوثائق تدل بكل وضوح على أن مشروع استعمار إفريقيا الشمالية والجزائر على وجه الخصوص, لم يبدأ تنفيذه سنة 1830 وإنما قبل هذا التاريخ بكثير. وهذه الشهادات التاريخية تعكس لنا جيدا الاهتمامات الكبرى التي كان يكنها العسكريون الأوروبيون والفرنسيون خاصة والمنصبة على استعمار منطقة جنوب البحر الأبيض المتوسط. ونتيجة لهذه الاهتمامات المعرفية والإيديولوجية للإدارة الاستعمارية الفرنسية, ظهرت إلى الوجود عدة دراسات كولونيالية ذات الطابع التاريخي والأنثروبولوجي والأثنوغرافي. لكن ما يميز كل هذه الدراسات هو الطابع التاريخي الذي تنتمي إليه.

2-2- المرحلة الأستعمارية-

1-2الدراسات العسكرية:

بعد أن تمت العملية الاستكشافية من طرف الدراسات الكولونيالية الأولى وخاصة تلك المرتبطة بتحضير الحملة الاستعمارية على الجزائر قبل 1830, ظهر على الساحة السياسية والمعرفية نوع آخر من الدراسات التي يمكن أن نصنفها ضمن الدراسات العسكرية.

وأغلب الدراسات التاريخية تتفق على أن الدراسات التاريخية العسكرية هي تلك الأبحاث التي تمت في المرحلة الممتدة بين سنة 1830 حتى سنة 1870. ذلك لكون هذه الأبحاث تترجم بصورة واضحة الوجود العسكري في الميدان الذي أقيمت فيه الدراسات نفسها وتترجم كذلك طبيعة الأهداف والأفكار التي تسعى إلى تحقيقها مثل هذه الأعمال.

وللتقرب أكثر من هذه العينة من الأبحاث العسكرية ركزنا تحليلنا ومقاربتنا على أعمال كل من "Hanoteau وكذاLetourneux" في دراستهما المشهورة حول منطقة القبائل، بعنوان:" منطقة القبائل و أعرافها" التي صدرت سنة 1893م. وهي من الدراسات الأولى التي قامت بها فئة الضباط والعسكريين, بل إن أصحابها يحتلون مناصب هامة ورفيعة في شؤون الإدراة العسكرية بالجزائر. الشيء الذي يترجم اهتماماتهم وانشغالاتهم الإيديلوجية

والمعرفية حول بعض القضايا التي نعالجها عند عرضنا لمحتوى الدراسة التي نحن بصددها والمشار إليها أعلاه ، ومن أمثلة الدراسات العسكرية هي:.

- **دراسة "جول ليورال" – (JulesLiorel)**

تتمحور دراسة " جول ليورال" حول الأعراق البربرية لمنطقة قبائل جرجرة, وتندرج ضمن حقل الدراسات العسكرية التي تبلورت خاصة بعد نجاح الحملة الاستعمارية التي هيأت أرضيتها الأبحاث الاستكشافية التي تكثفت قبل سنة 1830، أي قبل تاريخ الدخول الفرنسي إلى شمال إفريقيا. لكن الشيء الرئيسي الذي يميز هذه الدراسة هو التاريخ الذي ظهرت فيه وهو نهاية 1892، وبالتالي فهي تأتي مباشرة بعد الدراسة التي سبق التعرض إليها. وليس غريبا أن نجدها بالتالي متأثرة إلى أبعد حد بالخلاصات والنتائج السياسية والإيديولوجية التي توصلت إليها هذه الأخيرة.

2-2- الدراسات الأكاديمية

إلى جانب الدراسات الاستكشافية والأبحاث العسكرية التي كانت تشكل الحيز المعرفي لحقل الدراسات الكولونيالية، نجد انتشار صنف آخر من الدراسات حول الانتاج المعرفي الأكاديمي, والتي تطورت كثيرا، ابتداء من سنة 1870، وهو التاريخ الذي يميز بداية ظهور الأبحاث الجامعية حول الجماعات السكانية المستقرة في الجزائر، وكذلك حول كثير من المواضيع التي لها علاقة مباشرة بعملية التنظيم الإدراي والسياسي لمختلف الجماعات الاجتماعية والريفية على وجه الخصوص. ويرجع سبب تصنيف هذه الدراسات إلى حقل الدراسات الأكاديمية، إلى طبيعة البحوث في حد ذاتها، وكذلك إلى أصحابها الذين ينتمون إلى فئة الجامعيين الذين تمكنوا من تأليف دراسات وأطروحات جامعية مختلفة تمحورت أساسا حول الايديولوجية المعرفية والعلمية للإدراة الاستعمارية. أي إن هذه الأبحاث رغم كونها أبحاثا جامعية وأكاديمية بقيت دائما في خدمة الحاجات والمشاريع والأغراض الاستعمارية، بحيث أنها تشكل الإطار المعرفي والعلمي لكثير من التوجيهات والإجراءات العلمية للإدارة الاستعمارية خلال سنوات عديدة[8].

- **دراسة إميل مسكراي "EmileMasqueray"**

يمكننا من الوهلة الأولى أن نصنف دراسة هذا الأخير ضمن أهم الدراسات التي تشكل الحقل الدراسي الأكاديمي في إطار الدراسات الكولونيالية المنجزة حول الجزائر، لكن تصنيفنا لهذه الدراسة ضمن هذا الحقل، لا يعني بأنها بعيدة عن الانشغالات السياسية والفكرية المتبلورة في الإشكاليات الاستعمارية الإدارية والعسكرية. وهذا راجع لكل المواضيع والمسائل التي تعرضت إليها معظم الأبحاث الأكاديمية، التي غالبا ما تصطدم بالأهداف والمصالح العلمية للمشروع الاستعماري، فيحدث إعادة توجيهها واستغلالها لصالح هذه الأهداف، هذا من جانب ومن جانب آخر لاحظنا أن التوجيهات الإيديولوجية لهذه الدراسات تنصب أساسا على إيجاد التفاسير العلمية لبلورة الاستراتيجية الاستعمارية في الميدان التنظيمي والإداري(9).

2- الأنثروبولوجيا في مرحلة الاستقلال: مرحلة النكبة- أنثروبولوجيا بدون أنثروبولجيين

لم تكن الدراسات الأنثروبولجيا في العقدين الأولين من الاستقلال متطورة، أو موجودة أصلاً، بل غيبت الأنثروبولجيا كونها علم الاستعمار، ولم يكن مرغوب فيها مع التوجهات الكبرى للدولة (الأشتراكية) فالأهداف هنا اختلفت والمنطلقات تغيرت. الانثروبولوجيا المغضوب عليها سياسيا و إيديولوجيا بعد الاستقلال، باعتبارها "العلم الاستعماري بامتياز"، ستختفي كمادة للتدريس والبحث, لتحل محلها السوسيولوجيا لتعويم الجزء في "الكل": الكل الخاص الذي أريد به "العام" (العوام)، وهي سياسة تعليمية, تجد متكآتها في النهج السياسي – الأيديولوجي الاقتصادي المختار (الاشتراكية)، باعتباره نهجا مناهضا للاستعمار و"علومه" ووسائل عمله التي ينبغي إحداث القطيعة معها.واعتبار الانثروبولوجيا " سندا لنجاح الاستعمار" – على رأي بن يحي. (P.Lucas,J.C.Vatin: L'Algérie des anthropologues.P.264.).

وفي هذا السياق وهذه الظروف، على غرار غالبية المجتمعات العربية التي كانت خاضعة للاستعمار، كانت إيديولوجية أنظمتها الحاكمة ترى حاجتها لعلم الاجتماع لضرورات

تنموية واستكمال لتحررها(النظرية الماركسية ومناصرة الشعوب المستضعفة) إذ حين تأسس علم الاجتماع في مصر كان المجتمع المصري على عتبة التحولات، ولكنه لم يزل مجتمعا تقليديا، فلم يختبر التحولات الكبرى التي أفضت ظهور علم الاجتماع في أوربا، قبليا في تنظيمه الاجتماعي، زراعيا ورعويا في تدبيره المعاشي وحركة التصنيع الذي سطرت له أهداف كبرى لم يتوطن ثقافيا وبقي في مهده، فثقافة الزراعة والقرية ظلت سائدة في المدينة والمصنع، لذلك مارس معظم الباحثين الأجتماعيين الانثروبولوجيا بقصد أو بدون قصد، أو بطريقة لا شعورية، لأن المجتمع الجزائري الحديث العهد بالاستقلال كان يعيش عكس ذلك، أي عكس ما تريده له الدولة آنذاك، أي المجتمع المتمدن الشاغل للفضاء الحضري. وفي تلك الفترة جندت دراسات اجتماعية كثيرة حول المصنع في العالم الحضري لمواكبة حركة التصنيع في العالم الحضري ونفس الشيء بالنسبة للعالم الريفي لإنجاح حركة الإصلاح والثورة الزراعية، وقد حاول الخطاب الرسمي في فترة السبعينيات، أن يجعل من العلوم الاجتماعية، وعلم الاجتماع تحديدا مادة نضالية لا تفسيرية، تلعب دورا في عملية التحرر الاقتصادي والثقافي"[10] وهذه الحقيقة تلامس الواقع، ودون المبالغة في القول: "أن علم الاجتماع في الجزائر نشأ بلا موضوع يدرسه، فقد بدا للعديد من المشتغلين بهذا العلم استنباطيا أكثر منه إستقرائيا". لأن لا سوسيولوجيا تريدها الدولة إلا التي كانت ترى فيها ضالتها ومتكآتها الأيديولوجية.

على هذا النحو، طرح الإشكال بعد الاستقلال: أية ايديولوجيا لأي مجتمع؟!بما يعني رفض أي منهج " معارض" "للأيديولوجيا الوطنية"، بما في ذلك المناهج التكوينية والتربوية المعتبرة" معادية للاشتراكية"، المسماة" مناهج برجوازية"، بما في ذلك السوسيولوجيا، ناهيك عن الانثروبولوجيا!

أما الأنثروبولوجيا, فقد حالت دونها عقبات، مما جعلها تتراجع بشكل ملحوظ عما كان عليه الحال قبل الاستقلال. تراجع في التكوين وفي الممارسة الميدانية، أدى في الأخير إلى غياب شبه كلي لأنثروبولوجيين جزائريين، ومنهم من آثر الهجرة والنشاط في الأكاديمية البربرية، وباستثناء بعض الباحثين المستقلين(مولود معمري مثلا، والذي انكب على

البحث في مجال الثقافة الشفهية واللغة الأمازيغية)، فإن معظم الدراسات والبحوث بقيت نظرية أوماكرو-سوسيولوجية. ومن اللذين اشتغلوا ضمن هذا الحقل بعد لاستقلال، من الجامعيين الفرنسيين، ممن كانوا على علاقة بالاهتمامات ذاتها قبل الاستقلال، وممن أبقي عليهم (بورديو، بيرك، آجرون، إضافة إلى قائمة من الباحثين: كولونا، مندوز، إيف لاكوست، غاليسو...)، تحولوا إلى دراسة الإنسان الجزائري من منظور سوسيو- تاريخي واقتصادي عام ضمن سياق التغير الاجتماعي والاقتصاد السياسي الجديد، دون أن تحظى الأنثروبولوجيا بالاهتمام للأسباب المذكورة. فقد انفرد البعض لدراسة تبعات ومخلفات الاستعمار ضمن نهج" تصفية الاستعمار" ((Chaulet, Lucas, Berque، ودراسته في سياق التحولات الجديدة، والانتقالية من مجتمع تحت الاحتلال إلى مجتمع "مالك للأرض"، لامزاول للتعليم "الحر والإجباري" لاالشاغل للفضاء المعماري الحضري أو الريفي" الجديد"، الممارس لشعائر دينه وتقاليده وعاداته. كما نجد ذلك الاهتمام بفكرة الطبقات الجديدة التي أنتجها المجتمع الجديد (R.Galisot; Maghreb; classes et nation،) هذا في الوقت الذي كانت فيه هذه الكتابات تضرب صفحا عن المواضيع الأنثروبولوجيا التي كانت تسترعي الاهتمام قبل الاستقلال، أو لنقل أن الدراسات الأنثروبولوجية قد ذابت في السوسيولوجيا، أو بشكل آخر أن الأنثروبولوجيا قد مورست في غياب الأنثروبولوجيين[(11)]. ويقسم الباحث عمار يزلي ممن اشتغلوا على مواضيع أثروبولوجيا إلى ثلاث صفوات:

- الصفوة الأصالية: التي جعلت من "العروبة والإسلام" حقلا ومنهجا باعتبار أن هذين العنصرين يمثلان " أصالة الشعب الجزائري" (عبد العزيز الخالدي، مالك بن نبي وبعض تلامذة التيار الإصلاحي)
- الصفوة الماركسية: والتي تبنت النهج الاشتراكي، فلسفة ومنهجا اقتصاديا (كاتب ياسين مثلا باعتباره أديبا وباحثا في التراث الشعبي والمسرحي)
- الصفوة التوفيقية: والتي حاولت التوفيق بين البينين (أحمد طالب الإبراهيمي، مولود قاسم، مصطفى الأشرف).

أما الأنثروبولوجيا, فقد حالت دونها عقبات, مما جعلها تتراجع بشكل ملحوظ عما كان عليه الحال قبل الاستقلال. تراجع في التكوين وفي الممارسة الميدانية, أدى في الأخير إلى غياب شبه كلي لأنثروبولوجيين جزائريين، وباستثناء بعض الباحثين المستقلين(مولود معمري مثلا، والذي انكب على البحث في مجال الثقافة الشفهية واللغة الأمازيغية)، فإن معظم الدراسات والبحوث بقيت نظرية أوماكرو-سوسيولوجية.

وبعد ثلاث عقود من الاستقلال كان هناك رجوعاً محتشماً للممارسات الانثروبولوجيا، مع بوخبزة، حفيظ بنون، نذير معروف، أحمد بن نعوم، عبد الرحمان موساوي، سليم خياط، عبد العزيز رأس المال، وتأسيس مراكز بحث، مثل مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية بوهران، معهد الثقافة الشعبية بتلمسان، وأصبحت الأنثروبولوجيا تدرس في الجامعات وان كانت كمقياس أو كتخصص مقصورة على ما بعد التدرج، جامعة وهران وجامعة خنشلة.

3- الانثروبولوجيا في الجامعات الجزائرية: التأسيس الأكاديمي المرتبك

إذا كانت الانثروبولوجيا دخلت مصر عن طريق الجامعة وانطلقت تطبيقاتها الميدانية نحو المجتمع المصري من أقسام الأنثروبوولجيا أو أقسام العلوم الاجتماعية عامة، ونظريا تأسست أقسام الأنثروبولوجيا من طرف الآباء الأوائل الذين ارسوا دعائم هذا العلم في بلدانهم، ودعمه من طرف الدولة فأن الأمر مختلف عنه في الجزائر، فقد غيبت الانثروبولجيا كتخصص أكاديمي في الجامعات الجزائرية كافة فقد ألحقت بها تلك الوصمة المدنسة وهي أن الأنثروبولوجيا علم أو في الأقل مساندة للاستعمار، وهذه النظرة السلبية لم تكن موجود في مصر، وربما ترجع إلى طبيعة النظرة المتعلقة بالاستعمار نفسه والتي كان ينظر إليها المصريين على الدراسات الأنثروبولوجية ما قبل الاستعمار ولم تنظر السلطة المصرية إلى الدراسات الأنثروبولوجيا التي قام بها الأنجليز إن وجدت أثناء فترة الحماية لتسهيل عملية الهيمنة، وقبلها الفرنسيين لما أصطحب نابليون بونابرت لأزيد من 150 عالما وباحثا فرنسيا وما انجزوه في مصر دور الدافع والحافز للتعرف العلوم الأوربية الحديثة وممارستها"، بل أكثر من ذلك كانت ردت الفعل إيجابية بمسايرة الاتجاه البحثي والعلمي

أكثر، تجلى ذلك في بعثات محمد علي الطلابية للبلدان الأوربية، وبالتالي كانت مصر دائم متقبل للحضارة الغربية ومنتجاتها ومنها الأنثروبولوجيا، وربما يرجع ذلك أيضا إلى طبيعة الاستعمار نفسه الذي لم يكن متطرفا وعنيفاً في مصر مثلما هو الحال عليه في الجزائر.

كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى النظر إلى الأنثروبولوجيا من طرف السلطة في الجزائر مغايرة للنظرة السلطات في مصر، بالرغم من إن الإرث السوسيولوجي والانثروبولوجي حول الجزائر في الفترة الاستعمارية يفوق بكثير مما هو لدى المصريين وربما ولا يتوفر لأي دولة عربية كانت مستعمرة، بل ونتيجة قوته تشكل في شكل اتجاهات ومدارس، "وبالرغم من مرامي تلك الدراسات وأهدافها فهي تمثل اليوم رصيداً هاما من المعطيات والمعلومات التي لاغنى عنها لفهم حقيقة حاسمة من مجتمعنا"[(12)].

ولذلك فعوض أن يجد الباحث نفسه عوض استقراء لوضعية الأنثروبولوجيا أكاديميا أي سيرورتها في الجامعات الجزائرية يجد الباحث نفسه في عرض واستقراء لسيرورة السوسيولوجية، إذ كانت ملحقة بها، بل وأن الأنثروبولجيا المتميزين الذين اشتغلوا في حقل الأنثروبولوجيا خصوصا المخضرمين منهم(بورديو، وشولي)، واصلوا جهودهم العلمية والبحثية في أقسام السوسيولوجيا بعد الاستقلال هاته الأخيرة التي لم تكن بدورها هي كذلك مستقلة عن الفلسفة في السنوات الأولى من الاستقلال مما جعلها تعيش حالة تأزم. ويكمن تأزم السوسيولوجيا ومن ورائها الأخت التوأمة الأنثروبولوجيا، في عدم التعرف على السوسيولوجيا من طرف الجزائريين في العقد الأول من الاستقلال، فلم يتم التعرف عليها كعلم مستقل بعد عدة سنوات من الاستقلال، لأسباب عدة ومنها الاستعمار نفسه، إذ لم تكن محل تدريس في المعاهد العليا التي تأسست 1871 ولا في الجامعة التي برزت إلى الوجود سنة1909، وعلى كل حال فلم يكن التمثيل الجزائري غلا تمثيلا رمزيا، ومن ناحية ثانية أن السوسيولوجيا كعلم لم تكن لتوظف في مشروع المقاومة كما كان الحال بالنسبة للتاريخ، الذي وظف منذ الاستقلال بل ومنذ بداية عصر النهضة أو الاستفاقة، نلاحظ بروزا قويا للدراسات التاريخية التي تذهب جميعها في اتجاه التأكيد على ديمومة الأمة الجزائرية وخصوصياتها واختلافها عن فرنسا".

بل وان السوسيولوجيا ذاتها في بداية الاستقلال لم تكن تخصص مستقلا بل كانت وريثة تقاليد المناهج الفرنسية في الدولة المستعمَرَة ومنها جامعة الجزائر في بداية الخمسينيات حيث كانت تدرس مادة علم الاجتماع لنيل أحد شهادات الليسانس في الفلسفة ومنها شهادة تحت عنوان" الأخلاق والسوسيولوجيا" Moral et Sociologie"، ومع نهاية الخمسينيات كان ضمن مقررات شهادة الليسانس في الآداب والعلوم الإنسانية جملة من المواد تدّرس، ومنها شهادة في علم الاجتماع، شهادة في علم النفس الاجتماعي، الاقتصاد السياسي، الديمغرافيا والأثنوغرافيا لشمال إفريقيا. واستمر الحال على هذا التقسيم طوال فترة الستينيات، وحتى بداية السبعينيات لما أستقل علم الاجتماع عن دائرة الفلسفة كانوا خلفية التكوين الفلسفي، وكان نشاطهم البحثي الميداني على علاقة بحثية مباشرة مع "الجمعية الجزائرية للبحث في الديمغرافيا والاقتصاد وعلم الاجتماع"(AARDES)، التي أسسها بورديو بمرافقة عبد المالك صياد الذي كانت له إسهامات أساسية ساعدت على تشكل المدرسة النظرية التي جمعت بين المقاربة النظرية والتأصيل النظري لبورديو"[13]. ولم يستقل قسم علم الاجتماع نهائيا عن الفلسفة إلا سنة 1980 حيث تم إنشاء قسم علم الاجتماع الذي كان يشرف على إدارته إميل سكار Emil Sicard ، وفي هذه السنة بالضبط تم تعريب العلوم الاجتماعية بقرار سياسي مما أدخل الرعيل الأول من مدّرسي علم الاجتماع حالة من التيه اللغوي لأنهم كانوا ينتمون إلى جيل يتميز بأحادية اللغة العلمية/الفرنسية، والتكوين الفلسفي، وأخذ وعيه ككتلة سوسيولوجية مغلقة ذات توجهات يسارية في السنوات الممتدة ما بين سنة1970-1975[14].

وبنظرة موضوعية وتقييمية لحالة السوسيولوجية في الجزائر وهي تمثل عينة للبلاد العربية، لعالم اجتماع جزائري وهو المرحوم جمال الدين غريد الذي بدأ حياته العلمية كعالم اجتماع وأختتمها بالأنثروبولوجيا ويقاسمه كثيرا من علماء الاجتماع العرب" الوضعية الجزائرية اليوم بالنسبة للسوسيولوجيا هو ما نلاحظه اليوم في الجزائر هو وجود مؤسساتي ومادي قوي وصاخب وسلطة سوسيولوجية في غاية الضعف ومستوى علمي آخذ في الابتعاد عن المستوى الدولي، هذا الوجود المؤسساتي، إذ لا تخلوا أي جامعة تقريبا من تدريس

السوسيولوجيا، فرض أنطباعاً، بأن السوسيولوجيا موجودة وهي بخير، وقد يكون هذا الانطباع وهماً"[15]. وتزامنا مع توسع تدريس السوسيولوجيا في جامعات الوطن الكبرى(قسنطينة، عنابة، الجزائر، وهران) في منتصف الثمانينات إذ كانت تعقد التظاهرات العلمية الكبرى الوطنية والدولية حول السوسيولوجيا بانتظام تقريبا من بينها المؤتمر الدولي الرابع والعشرين لعلم الاجتماع الذي عقد بالجزائر سنة1975، "إذ تم التركيز في الخطاب التوجيهي الذي ألقاه وزير التعليم العالي السيد الصديق بن يحيى عن أسباب الحذر والتنفير من المعرفة السوسيولوجية باعتبارها معرفة تستمد وتمثل استمرار المعرفة الكولونيالية، وخاصة الجانب المرتبطة بعلم الجناسة (الأنثروبولوجيا)، وهي مادة تخصص أوجدتها حسب الخطاب الرسمي ظروف تاريخية خاصة وقائمة على الافتراض القائل بان بعض المجتمعات لم تعرف التطور وأن بينياتها تشمل على ميزات تجعلها غير قابلة للتطور"[16]. وخلال تلك الفترة وما بعدها سواء في التظاهرات العلمية[17] أو الجامعة نجد تغييب لكلمة أو مصطلح "أنثروبولجيا"، وعدم وورود أسمها حتى في خطابات الأنثروبولوجيين الذين مارسوا الأنثروبولوجيا تحت غطاء السوسيولوجيا فلم تكن لهم الشجاعة للبوح حتى بمجرد المصطلح فكانت تورد باسم الثقافة الشعبية أو المحلية، أو كانت توصف باستعارات أخرى.بل ولم تكن وحدة للتدريس حتى في تخصص علم الاجتماع، فالسوسيولوجية حتى العقد الثالث من الاستقلال كانت مراقبة وينظر إليها بحذر والخطاب الرسمي يتوجس منها خيفة بالرغم من عدم وورود مصطلح "أنثروبولوجيا" في ذلك الوقت، فـ"السوسيولوجيا"- في نظر السلطة- لازالت تحمل في رحمها الأنثروبولوجيا، العلم المزعج والمشاغب دوماً.

هذه الرؤية و"هذا المنطق جعل العلوم الاجتماعية والإنسانية ينظر إليها نظرة دونية، إن كان على مستوى رسم الأستراتيجيات العامة للتعليم العالي، أو البحث العلمي ومشاريعه التي أصبح يغلب عليها الطابع التقني المفرط على حساب المعرفي الأساسي في كل تجلياته النظرية والتطبيقة"[18].

وإذا نظرنا إلى التاريخ القصير للسوسيولوجيا فأننا نلاحظ اختلافا بيّناً بين السوسيولوجيا العقدين الأولين من الاستقلال وسوسيولوجيا العقدين اللاحقين، فسوسيولوجيا المرحلة الأولى تميزت أساسا بتطور مفرط لسوسيولوجيا النظرية وبغياب وتغييب للمجتمع وقضاياه العينية، بينما المرحلة الثانية تميزت بالعكس تماما، ففيها احتلت قضايا المجتمع المختلفة مكان الصدارة وفيها تراجعت وضعفت مقارباتها العلمية، فكلا المرحلتين تميزت بنقص في جانب مما يبقيها دون المستوى المطلوب، و"في الوقت الذي كانت تتعصب فيه السوسيولوجيا في الجزائر للنماذج الأبستيمولوجية للسبعينيات، كان المجتمع يتغير وفي تغيره كان يطرح على السوسيولوجيا نماذج ومشاكل اجتماعية جديدة وانبعاث أوجه أخرى قديمة، أو تقليدية (الأثنية، الزاوية، الدين....) ظنّ الكثيرون إنها اختفت أو أنها على الأقل في طريق الاختفاء"[19] من الخارطة الاجتماعية كالقبيلة، لتترك مكانها للبنى الحديث كالحزب والمجتمع المدني. والإجارة/العمل لم تعد هي الشكل السائد أو المهيمن في علاقات العمل، بل النشاطات اللاّرسمية لهي في تصاعد مستمرة، والمطالب بالحريات والاعتراف بالهويات الثقافية تجلى ذلك في حركة الربيع الأمازيغي. مع ارتفاع ظاهرة البطالة في المدن الناتجة عن غلق المؤسسات الصناعية التي كانت ميدانا للدراسة السوسيولوجية ومع بداية التسعينيات كثر الطلب على السكن والعمل والمعطيات الدولية تغيرت ووجدت الدولة نفسها تعيش عهد التداخلات. فسمحت بالانفتاح الاقتصادي والسياسي وحرية التعبير، مما أدى إلى تخفيف الخطاب الأيديولجي اتجاه الآراء العلمية المزعجة. وجرت أول انتخابات تعددية حزبية، فكانت النتائج عكس ما كان متوقع مما أخرج زعيم حزب سياسي عن صمته: "لم نكن نعرف المجتمع الجزائري"، وهي عبارة كانت كافية من السلطة للتعبير واعتراف بأن المجتمع كان يسير عكس السوسيولوجيا التي رُسمت له طوال حقبة من الزمن التي أريد للمجتمع أن يسير وفقها، أي كانت تتم مقاربة المجتمع كما يجب أن يكون لا كما هو كائن.

أمام هذا الواقع الذي أفرز واقعاً آخر بدوره لا يقل إشكالا عن سابقه، يعاد طرح الأشكال من جديد وفق معطيات برؤى جديدة لموضوعات جديدة أي إنسان وأي مجتمع

نتعامل معه وفيه ومنه؟ أية تركيبة ذهنية تتحكم في مساره وبالتالي يجب دراسة المجتمع/الإنسان الجزائري كما هو، لا كما يجب أن يكون[20]،- رغم الخوف الذي أبدته بعض الأوساط من "معالم التنوير" لهذا العلم المشاغب في نظرها-، وقد تجسد ذلك عمليا في أنشاء أول وحدة للبحث في الأنثروبولوجيا في بداية التسعينات في السانية وهران، ثم تطورت إلى مركز بحث له فروع وفتح أول تكوين له في الدكتوراه للطلبة من كافة التخصصات في العلوم الاجتماعية والإنسانية وحتى الجغرافيا، وأطلق نشاطاته العلمية والبحثية استكمال العقد الأول من تأسيسه فكثرت الدفاتر والدوريات والمجلات العلمية، أشهرها "مجلة أنسانيات" في الأنثروبولجيا والتي زالت تصدر حتى اليوم، ولا يمكن تجاهل الجهود المطنبة في تنطيم التظاهرات العلمية، من بينها وقائع ملتقى عقد سنة 1999" حول مستقبل العلوم الاجتماعية في الجزائر، وكذا أنتاجه لكتاب حوصلة العلوم المعارف في العلوم الاجتماعية والإنسانية في الجزائر بعد خمسين سنة الذي نشر في الجزائر من طرف المركز سنة2008[21]. ثم أعقبها أنشاء معهد الثقافة الشعبية في تلمسان والذي هو إيضا أختص بالتكوين أكثر من البحث واستقبل تخصصات في علم النفس والاجتماع والآداب من حملة الليسانس، ليمنحهم شهادات فيما بعد التدرج في التخصص وكانت بدايته تحت سلطة وزارة الثقافة لتتولى وصايته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي فيما بعد، وكذا المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، والذي هو بدوره منذ إنشائه وإلى اليوم تحت وصاية وزارة الثقافة، وخلال هذه المدة تقريبا أي حقبة التسعينيات لم يفتح تخصص الأنثروبولوجيا في الجامعات فالتجربة الأولى للانثروبولوجيا كانت مسموح بها خارج الجامعة وبعض منها خارج وزارة التعليم العالي، وكان على الجامعة أن تنتظر حتى سنة 2002كي تفتح مشروع مسابقة الماجيستير للتكوين فيما بعد التدرج من طرف المرحوم جمال الدين غريد بقسم علم الاجتماع بجامعة وهران، حمل المشروع أسم" أنثروبولوجيا الجزائر المعاصرة" بستة مناصب وهي أول تجربة في الجزائر على الإطلاق للتكوين في الأنثروبولجيا في الجامعة، ثم أعقبتها دفعة أخرى بثمانية مناصب بمشروع حمل نفس الأسم في السنة الموالية، ثم في سنة2004، وسنة 2005 مشروع

أنثروبولجيا المعرفة من طرف الأستاذ: غريد نفسه وتلتها دفعات في أنثروبولوجيا المدينة وانثروبولوجيا الصحة وكل ذلك إلا في إطار ما بعد التدرج.

ومع رياح التغيير التي لحقت بالجامعة ضمن إطار التكوين وتغيير البرنامج في أطار" ل م د"LmD، تم فتح تخصص سوسيوانثروبولوجيا وليس أنثروبولوجيا بمفردها، بجامعة تبسة2007 من طرف الأستاذة بروقي وسيلة كان ذلك سنة2005-2006 وتلتها أربعة دفعات في الليسانس متتالية ليتوقف المشروع، وشهاد ة المقدمة كانت تسمى ب" شهادة الليسانس في علم الاجتماع شعبة علم الاجتماع الأنثروبولوجيا" وضمن قسم العلوم الأجتماعية، واستمر التكوين في الماستر بأول دفعة سنة2009/2008، حملت أسم أنثروبولوجيا عامة وأشرفت عليها الأستاذة بروقي وسيلة، وتلتها ثلاث دفعات متتالية، إلى أول سنة دكتوراه ل م د LMD كانت سنة2016، ونفس الشيء تقريبا بالنسبة لجامعة خنشلة وفي نفس المدة إذ ابتدأت التكوين في السوسيوأنثروبولوجيا في الليسانس والماستر وتختمه بالأنثروبولوجيا، وكان التكوين في السوسيوأنثروبولوجيا في التدرج يكاد يكون حصراً في هذين الجامعتين فقط إلى يومنا هذا، أما التكوين في ما بعد التدرج، يمنح دكتوراه ل م د LMD ، فقد أستمر بوتيرة متسارعة – ولأنجاح نظام ل م د LMD– في جامعة متعددة من الوطن كجامعة تلمسان، وجامعة مستغانم (دفعتين2012/2013-2013/2014)، أشرف عليها الدكتور سيكوك قويدر، وجامعة ورقلة أكتوبر2016، أشرف عليها الدكتور خليفة عبد القادر الذي ينتمي لأول دفعة في الأنثروبولوجيا في جزائر الاستقلال والتي قام بتكوينها مركز البحث الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران وقسنطينة في نهاية تسعينيات القرن الماضي. وفي الوقت ذاته أستمر التكوين في الأنثروبولوجيا في الماجيستير في أطار المدرسة الدكتورالية بين جامعتين أو أكثر مثلما هو الحال بين جامعة أدرار وجامعة مستغانم سنة2014.

نستخلص من خلال هذه المسيرة للأنثروبولجيا منذ السماح بتداولها في الأوساط والخطابات الآكاديمية منذ منتصف التسعينيات، وحتى العقدين اللاحقين في الألفية الثانية أن الأنثروبولجيا تم تجريبها خارج أطرها التقليدية الأولى (الجامعة والمؤسسات الأكاديمية)،

مركز الثقافة الشعبية بتلمسان، بل وأحيانا ليس تحت وصاية التعليم العالي، بل وزارة الثقافة مثلما هو الحال بالنسبة للمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان، وذلك ليسهل التحكم فيها، ولربما لتوظف كأنثروبولجيا ندية لكل أنثروبولجيا مناوئة ومزعجة للدولة قد تأتي من الجامعة وأقسام العلوم الاجتماعية، أو الأصباغ الدور الثقافي عليها وليس العلمي، والميزة الثانية وهي أن الأنثروبولوجيا لم تكن محل التكوين في التدرج سواء في النظام الكلاسيكي أو حتى نظام ل م د، مما يعني ان الدولة هي التي تقرر التكوين في التدرج وتملي المقررات، وبالتالي تخضع لسياسي وليس العلمي، حتى وإن حدث فهو قد أنحصر في جامعتين في الشرق الجزائري(تبسة، وخنشلة)، ولمدة معينة فقط، وجاء باسم "السوسيوانثروبولجيا" لتعويم الجزء في الكل على حد تعبير الأستاذ عمار يزلي وليس مصطلح/تخصص" أنثروبولجيا" خالص، مما يدل على أن المصطلح لايزال مزعجاً، وبالرغم من هذه المسيرة الطويلة والتكوين البشري، لم تستقل بقسم وحدها مثلما هو الحال في جامعة آل البيت باليرموك بالمملكة الأردنية الهاشمية، والميزة الثالثة وان جل المكونين فيها تنوعت وتعددت تخصصاتهم فيما قبل التدرج، وكانت غير الأنثروبولجيا مما يترك لديهم أنطباعا لسلطة تكوينهم الأولي بالرغم من شمولية هذا العلم.

لكن بالرغم ومن كل هذا يجب أن نثمن كل ذلك الجهد المبذول والمتنامي، فلكلي جواد كبوة. وأن من كونهم مركز البحث في الأنثروبولوجيا CRASC ، أصبحوا اليوم من يشرف على التكوين في الأنثروبولوجيا على مستوى الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، وأن ذلك المركز لخير دليل صحة حالة الأنثروبولوجيا في بلادنا، الذي أصبح ينافس ويقف بالندية لمراكز البحث العربية بل والعالمية، وما زيارة كبار علماء الاجتماع والأنثروبولجيين العالميين ليحاضروا فيه أو يقيموا ندوة علمية، واحتضانه لتظاهرات عالمية كان آخرها" لخير دليل على ذلك، لكن هذا التطور على مستوى مركز البحث أما بالنسبة للجامعة، فمنذ بداية الألفية ودخلت معها الأنثروبولجيا للجامعة،" تمت إعادة النظر في وظيفة الجامعة ذاتها والدراسات الآكاديمية، بالرغم من فتح الجامعات الجديدة براجمها للعلوم الاجتماعية وومنها الأنثروبولجيا، لكن في الوقت ذاته تم التركيز والعمل على تأسيس نظام بيداغوجي جديد مشكلاً من

مكونات أكاديمية، وأخرى مهنية، مع أعتماد تسميات جديدة للشهادات تعطي الأنطباع وتصور للجامعة وكأنها مقاولات ذات طبيعة سوسيو-اقتصادية، هدفها تحضير الطلبة للأندماج في النشاط الاقتصادي والاجتماعي وليس النشاط البحثي، وهذا هو الحال بالنسبة إلى الجامعة الجزائرية الآن خاصة بعد اعتماد نظام ل م د LMD المختلف على توجهاته ونجاعته المعرفية"22، وخاصة على مستوى العلوم الاجتماعية ومنها السوسيولوجية والأنثروبولوجيا، ويبقى لكل مجتهد مصاب.

المراجع والهوامش

[1] - بدوي أحمد موسى، التكوين العلمي السوسيولوجي في المشرق العربي- علم الاجتماع بحثا وتدريسا في مصر والسودان، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،2012، ص131.

[2] - جمال الدين غريد، الزرع الأشكالي للسوسيولجيا فيالعالم العربي حالتا مصر والجزائر، كتاب علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع،دار القصبة للنشر، الجزائر،2004، ص74.

[3] - الجوهري محمد. شكري،علياء.، مقدمة فيدراسةالأنثروبولوجيا، بدون دار النشر ،2008،

[4] - الجوهري،م. شكري،ع:7.2008

[5] - الجوهري،م. شكري،ع:8.2008

[6] - فراجي محمد آكلي، الإشكالية المعرفية للسوسيولوجيا الكولونيالية في الجزائر،دراسة عينة من الأبحاث الكولونيالية التي أنجزت حول منطقة القبائل، كتاب علم الأجتماع والمجتمع في الجزائر، مرجع سبق ذكره،93.

[7] - المرجع نفسه،، ص94.

[8] - نفس المرجع السابق، ص104.

[9] - فراجي محمد، آ،96.2002

[10] -عروس الزوبير، مدخل تاريخ وواقع الممارسة السوسيولوجية: المدرسة المغاربية نموذجا، المستقبل العربي، حزيران يونيو 2012، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص129.

[11] - عمار يزلي، مرجع السابق، ص85.

[12] - جمال الدين غريد، المرجع السابق، ص

[13] - عروس الزوبير،ص 120-121.

[14] - عروس الزوبير، المرجع السابق، ص121

[15] - جمال الدين غريد، المرجع السابق، ص76.

[16] - عروس الزوبير، المرجع السابق، ص130، شارك في ذلك اللقاء 530 عالم أجتماع قدمو من 70 بلدا، وقدّم فيه نحو 260 بحثا لم تنشر بعد.

[17] - مؤتمر كنستال/ وهران1984. وأول مؤتمر علمي ينفصل فيه الخطاب السوسيولوجي عن الخطاب السياسي ويعارضه.

[18] - عروس الزوبير، المرجع السابق، ص109.

[19] - لقجع عبد القادر، تعريب، جمال الدين غريد، الجزائر أرض مغامرة للسوسيولوجيا، علم الأجتماع والمجتمع في الجزائر،

[20] - عمار يزلي، الجزائر والأنثروبولوجيا، المناهج والموضوعات، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، المرجع السابق، ص91.

[21] - أنظر وقائع ملتقى ،أي مستقبل للأنثروبولجيا في الجزائر- وقائع ملتقى أي مستقبل للأنثروبولجيا في الجزائر، الذي عقد بتيميمون- أدرار نوفمبر1999، من تنسيق نزير معروف وخديجة عادل،، ونشر في كتاب تحت عنوان أي مستقبل للأنثروبولجيا في الجزائر، CRASC، وهران2002.، أما كتاب: الجزائر بعد 50 سنة، حوصلة المعارف فيالعلوم الأجتماعية والأنسانية،1954-2004 تحت اشراف نورية بن غبريط رمعون ومصطفى حداب، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران،2008.، وبين الحدثين وفي معناهما دلالة وعمق كبيرين، فالأول جاء ليضع سكة البحث الأنثروبولجي على السكة في الجزائر ويوجه لها المسار الصحيح ، فيخطط ويستشرف لما هو آت، أما الثاني فجاء كحوصلة لما فات، لاسيما الجزء الأول منه، تحت عنوان : الأنثروبولوجيا وعلم الأجتماع والعلوم الأجتماعية عناصر من أجل حوصلة عامة.

[22] - عروس الزوبير، المرجع السابق،ص 120.

المراجع المعتمدة:

1- الجوهري،محمد، علياء شكري، مقدمة فيدراسةالأنثروبولوجيا، بدون دار النشر ،2008،،:..2008

2- بدوي أحمد موسى، التكوين العلمي السوسيولوجي في المشرق العربي- علم الاجتماع بحثا وتدريسا في مصر والسودان، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،2012.

3- جمال الدين غريد، الزرع الأشكالي للسوسيولجيا فيالعالم العربي حالتا مصر والجزائر، كتاب علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع،دار القصبة للنشر، الجزائر،2004.

4- فراجي محمد آكلي، الإشكالية المعرفية للسوسيولوجيا الكولونيالية في الجزائر،دراسة عينة من الأبحاث الكولونيالية التي أنجزت حول منطقة القبائل، كتاب علم الأجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصب للنشر، الجزائر،2004.

5- عروس الزوبير، مدخل تاريخ وواقع الممارسة السوسيولوجية: المدرسة المغاربية نموذجا، المستقبل العربي، حزيران يونيو 2012، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.

6- عمار يزلي، الجزائر والأنثروبولوجيا، المناهج والموضوعات، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصب للنشر، الجزائر،2004.

7- لقجع عبد القادر، تعريب، جمال الدين غريد، الجزائر أرض مغامرة للسوسيولوجيا، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصب للنشر، الجزائر،2004.